

تفسير سورة إبراهيم عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ
الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ
شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا
أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور ﴿كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ أى هذا كتاب
أنزلنا إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم الذى هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف
رسول بعثه الله فى الأرض إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أى
إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي إلى الهدى والرشد، كما
قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَآلَّذِينَ كَفَرُوا ءُوتِيَآهُمُ الظُّلُمَاتُ
يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٧]. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى يُزِيلُ عَنِ الْعَبِيدِ ءَايَاتِى لِيُنذِرَ
لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ الآية [الحديد: ٩].

وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أى هو الهادى لمن قدر له الهداية على يدى رسوله المبعوث عن أمره
يهدىهم ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ﴾، أى العزيز الذين لا يمانع ولا يغالب، بل هو القاهر لكل ما سواه،
﴿الْحَمِيدِ﴾ أى المحمود فى جميع أفعاله وأقواله وشرعه وأمره ونهيه الصادق فى خبره. وقوله: ﴿اللَّهُ
الَّذِى لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قرأه بعضهم مستأنفاً مرفوعاً وقرأ آخرون على الإنباع صفة
للجلالة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّابِعُهَا النَّاسُ إِنِى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٨]. وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أى ويل لهم يوم القيامة إذ
خالفوك يا محمد وكذبوك، ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، أى يقدمونها
ويؤثرونها عليها ويعملون للدنيا، ونسوا الآخرة وتركوها وراء ظهورهم ﴿وَيَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهى
اتباع الرسل ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أى يحبون أن يكون سبيل الله عوجاً مائلة عائلة، وهى مستقيمة فى
نفسها لا يضرها من خالفها، ولا من خذلها فهم فى ابتغائهم ذلك فى جهل وضلال بعيد من الحق،
لا يرجى لهم والحالة هذه صلاح.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُذَكِّرَ لَهُمْ فَفِيضٌ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ
يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾

هذا من لطفه تعالى بخلقه أنه يرسل إليهم رسلا منهم بلغاتهم، ليفهموا عنهم ما يريدون،
وما أرسلوا به إليهم، كما روى الإمام أحمد^(١): حدثنا وكيع عن عمر بن ذر قال: قال مجاهد
عن أبى ذر: قال قال رسول الله ﷺ: «لم يبعث الله عز وجل نبياً إلا بلغه قومه». وقوله: ﴿فِيضٌ اللَّهُ

مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴿١﴾ أى بعد البيان وإقامة الحججة عليهم، يضل تعالى من يشاء عن وجه الهدى، ويهدى من يشاء إلى الحق ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى أفعاله، فيضل من يستحق الإضلال ويهدى من هو أهل لذلك، وقد كانت هذه سنته فى خلقه أنه ما بعث نبيًا فى أمة إلا أن يكون بلغتهم، فاخص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ بعموم الرسالة إلى سائر الناس، كما ثبت فى الصحيحين^(١) عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» وله شواهد من وجوه كثيرة. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٢﴾﴾

يقول تعالى وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس كلهم، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى إلى بنى إسرائيل بآياتنا، قال مجاهد: وهى التسع الآيات ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ أى أمرناه قائلين له ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أى ادعهم إلى الخير ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان، ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ أى بآياديه ونعمه عليهم فى إخراجهم إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه، وإنجائهم إياهم من عدوهم، وقلقه لهم البحر، وتظليله إياهم بالعمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى إلى غير ذلك من النعم، قال ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد.

وقد ورد فيه الحديث المرفوع الذى رواه عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل^(٢) فى مسند أبيه حيث قال: حدثنى يحيى بن عبد الله مولى بنى هاشم، حدثنا محمد بن أبان الجعفى عن أبى إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، عن أبى بن كعب عن النبى ﷺ فى قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ قال: بنعم الله تبارك وتعالى، ورواه ابن جرير وابن أبى حاتم^(٣) من حديث محمد بن أبان به، ورواه عبد الله ابنه أيضًا موقوفًا وهو أشبه.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أى إن فيما صنعنا بأوليائنا بنى إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين لعبرة لكل صبار، أى فى الضراء شكور أى فى السراء، كما قال قتادة: نعم العبد عبد إذا ابتلى صبر، وإذا أعطى شكر. وكذا جاء فى الصحيح^(٤) عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أمر المؤمن كله عجب، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرًا له، إن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له، وإن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له».

(٢) المسند (٢٠٦٢٥).

(١) البخاري برقم (٤٣٨)، مسلم (٥٢١).

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

(٣) الطبري فى التفسير (١٨٤/١٣).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْعَوْنَ بِسَاءِكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبِكُمْ لَمِنَ شُكْرِكُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٦٨﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى حين ذكر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حيث كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم، ويتركون إناثهم، فأنقذ الله بنى إسرائيل من ذلك، وهذه نعمة عظيمة، ولهذا قال: ﴿وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أى نعمة عظيمة منه عليكم فى ذلك، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها وقيل: وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿بَلَاءٌ﴾ أى اختبار عظيم، ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا، والله أعلم، كقوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبِكُمْ﴾ أى آذنتكم وأعلمكم بوعدكم لكم، ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه، كما قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رَبُّكَ لَبِئْسَ مَا كَفَرْتُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وقوله: ﴿لَمِنَ شُكْرِكُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أى لئن شكرتم نعم الله لأزيدنكم منها، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ أى كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، وذلك بسلبها عنهم وعقابه إياهم على كفرها، وقد جاء فى الحديث «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»^(١). وفى المسند أن رسول الله ﷺ، مر به سائل فأعطاه تمرة، فتسخطها ولم يقبلها، ثم مر به آخر فأعطاه إياها، فقبلها وقال: تمرة من رسول الله ﷺ، فأمر له بأربعين درهماً، أو كما: قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا أسود، حدثنا عمارة الصيدلانى عن ثابت عن أنس، قال: أتى النبى ﷺ سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها أو وحش بها - قال: - وأتاه آخر فأمر له بتمرة، فقال: سبحان الله تمرة من رسول الله ﷺ، فقال للجارية: «أذهبى إلى أم سلمة فأعطيه الأربعين درهماً التى عندها» تفرد به الإمام أحمد، وعمارة بن زاذان وثقه ابن حبان وأحمد ويعقوب بن سفيان.

وقال ابن معين: صالح. وقال أبو زرعة: لا بأس به. وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به، ليس بالمتين. وقال البخارى: ربما يضطرب فى حديثه، وعن أحمد أيضاً أنه قال: روى عنه أحاديث منكورة. وقال أبو داود: ليس بذلك وضعفه الدارقطنى. وقال ابن عدى: لا بأس به ممن يكتب حديثه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أى هو غنى عن شكر عباده، وهو الحميد المحمود وإن كفره من كفره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ تَكْفُرًا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]. وقال تعالى: ﴿فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَأَسْتَمْتِ اللَّهُ

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٢)، أحمد (٢١٨٨١)، من حديث ثوبان.

(٢) المسند (١٢١٦٤).

وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ [التغابن: ٦].

وفى صحيح مسلم^(١) عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل أنه قال: يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر، فسبحانه وتعالى الغنى الحميد.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٥﴾﴾

قال ابن جرير: هذا من تمام قيل لقومه يعني وتذكاره إياهم بأيام الله بانتقامه من الأمم المكذبة بالرسول، وفيما قال ابن جرير نظر، والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة، فإنه قد قيل: إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقصه عليهم، فلا شك أن تكون هاتان القصتان في التوراة، والله أعلم، وبالجملة فالله تعالى قد قص علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسول مما لا يحصى عددهم إلا الله عز وجل ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات.

وقال أبو إسحاق عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله أنه قال في قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ كذب النسابون.

وقال عروة بن الزبير: ما وجدنا أحداً يعرف ما بعد معد بن عدنان.

وقوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ اختلف المفسرون في معناه، فقيل: معناه أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرونهم بالسكوت عنهم لما دعواهم إلى الله عز وجل. وقيل: بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم.

وقيل: بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل. وقال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة: معناه أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم. قال ابن جرير: وتوجيهه أن في ههنا بمعنى الباء، قال: وقد سمع من العرب أدخلك الله بالجنة يعنون في الجنة، وقال الشاعر:

وأرغب فيها عن لقيط ورهطه ولكنني عن سنيس لست أرغب
يريد أرغب بها. قلت: ويؤيد قول مجاهد تفسير ذلك بتمام الكلام ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ فكان هذا - والله أعلم - تفسير لمعنى ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾.

وقال سفيان الثوري وإسراييل عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله في قوله: ﴿فَرَدُّوا

أَيَّدِيهِمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴿١١٧﴾ قال: عضوا عليها غيظًا. وقال شعبة عن أبي إسحاق عن أبي هبيرة بن يريم، عن عبد الله أنه قال ذلك أيضًا.

وقد اختاره عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ووجهه ابن جرير مختارًا له بقوله تعالى عن المنافقين ﴿وَإِذَا حَلَّوْا عَصُوا عَلَيْكُمْ مِنَ الْكَيْفِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

وقال العوفي عن ابن عباس: لما سمعوا كلام الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم، ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ، وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ مَرِيِبٍ﴾، يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به، فإن عندنا فيه شكًا قويًا.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِمَّنْ دُؤِبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَدْعُنَا آبَاءُنَا قَاتُونَا يُسَلِّطِينَ مُبِيبٍ ﴿١١٨﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١٩﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصَبِرَ عَلَىٰ مَا مَا ءَآذِيْتُنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢٠﴾﴾

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أمهم لما واجهوهم بالشك فيما جاءهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: ﴿أَفِ اللَّهِ شَكٌّ﴾ وهذا يحتمل شيئين: (أحدهما) أفي وجوده شك، فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدكم إلى طريق معرفته بأنه ﴿فَأَطِرُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما، فلا بد لهما من صانع وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء وإله ومليكه.

(والمعنى الثاني) في قولهم: ﴿أَفِ اللَّهِ شَكٌّ﴾ أي أفي إلهيته وتفرد به بوجوب العبادة له شك، وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى، وقالت لهم رسلهم: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِمَّنْ دُؤِبِكُمْ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي في الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَسْتَفِرُّوْا رَبَّكُمْ ثُمَّ نُؤَبُّوْا إِلَيْهِ يُنْفِقْكُمْ مِّنْمَا حَسَبْنَا إِلَيْكُمْ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ الآية [هود: ٣]، فقالت لهم الأمم محاجين في مقام الرسالة بعد تقدير تسليمهم المقام الأول، وحاصل ما قالوه ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي كيف نتبعكم بمجرد قولكم ولما نر منكم معجزة، ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي خارق نقترح عليكم ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي صحيح أنا بشر مثلكم في البشرية ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي بالرسالة والنسبة ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ﴾ على وفق ما سألتم ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بعد سؤالنا إياه وإذنه لنا في ذلك ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي في جميع أمورهم، ثم قالت الرسل: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا

تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴿١﴾ أى وما يمنعا من التوكل عليه، وقد هداانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها ﴿وَلَنَصِّرَنَّ
عَلَى مَا مَادَيْتُمُونَا﴾ أى من الكلام السيء والأفعال السخيفة ﴿وَعَلَى اللَّهِ فليتوكل المتوكلون﴾ .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ
لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿٢﴾ وَلَنُكِنِّيَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿٣﴾
وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٤﴾ مِنْ رَأْيِهِ جَهَنَّمَ رُسُوفًا مِنْ مَاءٍ صَديدٍ ﴿٥﴾
يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيفُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ
رَأْيِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿٦﴾﴾

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم من الإخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم،
كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ بِشِمْبُتٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾
[الأعراف: ٨٨] . وكما قال قوم لوط: ﴿أَخْرِجْنَا أَوْ مَالِ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، وقال
تعالى إخباراً عن مشركى قريش: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْمِزُونَكَ
خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦] . وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ
وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وكان من صنعه تعالى أنه أظهر رسوله ونصره،
وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصاراً وأعواناً وجنوداً يقاتلون فى سبيل الله تعالى، ولم يزل يرقبه
تعالى من شىء إلى شىء حتى فتح له مكة التى أخرجته، ومكن له فيها، وأرغم آناف أعدائه منهم ومن
سائر أهل الأرض حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان فى
مشارك الأرض ومغاربها فى أيسر زمان، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُكِنِّيَنَّكُمْ
الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِإِيعَادِنَا الْمُتَرَسِّلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمْ الْمَصُورُونَ فَلَيْدَ جُنْدَانَا لَهُمْ
الْقَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾
[المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ﴾
الآية [الأنبياء: ١٠٥]، ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَفْعَمُونَ مِنْكَ الْأَرْضَ
وَمَعْرِبَهَا أَلَيْسَ لَنَا بِبَرَكَاتٍ فِيهَا وَنَمُتُّ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ
فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] وقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أى
وعدى هذا لمن خاف مقامى بين يدى يوم القيامة وخشى من وعيدى وهو تخويفى وعذابى كما قال
تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَفَى وَمَا تَرَى الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ لِبَئِيمٍ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْفَوَاحِشِ فَإِنَّ لَبَنَةً
هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٣٧-٤١] وقال ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦] .

وقوله: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ أى استنصرت الرسل ربها على قومها، قاله ابن عباس ومجاهد وقطادة، وقال
عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: استفتحت الأمم على أنفسها كما قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ
الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَنْزِلْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] ويحتمل أن يكون
هذا مراداً وهذا مراداً، كما أنهم استفتحوها على أنفسهم يوم بدر واستفتح رسول الله ﷺ وانتصر،

وقال الله تعالى للمشركين: ﴿إِنْ سَأَلْتَهُمْ لَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهَوْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ١٩] الآية، والله أعلم، ﴿وَتَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيبٍ﴾ أى متجبر فى نفسه معاند للحق، كقوله تعالى: ﴿أَلْيَا فِي جَهَنَّمَ كُلُّ كَفَّارٍ عَنِيبٍ مَنَاجٍ لِلخَبِيرِ مُمْتَرٍ مُرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْيَابُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق: ٢٤-٢٦] وفى الحديث «إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة، فتنادى الخلائق، فتقول: إنى وكلت بكل جبار عنيد»^(١) الحديث خاب وخسر حين اجتهد الأنبياء فى الابتهاال إلى ربها العزيز المقتدر.

وقوله: ﴿بَيْنَ رِوَابِهِ جَهَنَّمَ﴾ وراء هنا بمعنى أمام، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رِوَابُهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩] وكان ابن عباس يقرؤها: وكان أمامهم ملك، أى من وراء الجبار العنيد جهنم، أى هى له بالمرصاد يسكنها مخلداً يوم المعاد، ويعرض عليها غدوًّا وعشيًّا إلى يوم التناد ﴿وَسُقَىٰ مِنْ مَّاءٍ مَكِيدٍ﴾ أى فى النار ليس له شراب إلا من حميم أو غساق، فهذا حار فى غاية الحرارة، وهذا بارد فى غاية البرد والتتن، كما قال: ﴿هَذَا قَلْبُ قَوْهٍ حَبِيْبٍ وَعَسَاقٌ وَآخِرٌ مِنْ شَكْلِهِمْ أَرْوَجُ﴾ [ص: ٥٧-٥٨] قال مجاهد وعكرمة: الصديد من القيح والدم. وقال قتادة: هو ما يسيل من لحمه وجلده، وفى رواية عنه: الصديد ما يخرج من جوف الكافر قد خالط القيح والدم. وفى حديث شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: قلت يا رسول الله ما طينة الخبال؟ قال «صديد أهل النار»^(٢). وفى رواية «عصارة أهل النار».

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا على بن إسحاق، أنبأنا عبد الله، أنا صفوان بن عمرو عن عبيد الله بن بسر، عن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿وَسُقَىٰ مِنْ مَّاءٍ مَكِيدٍ بَيِّنَةٌ﴾ قال: «يقرب إليه فيتكرهه، فإذا أدنى منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره» يقول الله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥] ويقول: ﴿وَلَنْ يَسْتَفِيئُوا يَغَانُوا يَمَؤُا كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهُ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩]، وهكذا رواه ابن جرير^(٤) من حديث عبد الله بن المبارك به. ورواه هو وابن أبى حاتم من حديث بقية بن الوليد عن صفوان بن عمرو به.

وقوله: ﴿بَيِّنَةٌ﴾ أى يتخصصه ويتكرهه، أى يشربه قهراً وقسراً لا يضعه فى فيه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ مَنَاجِيعٌ مِنْ حديدٍ﴾ [الحج: ٢١] ﴿وَلَا يَكَادُ يُسَبِّطُهُ﴾ أى يزدده لسوء لئونه وطعمه وريحه وحرارته أو برده الذى لا يستطيع ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أى يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه. قال ميمون بن مهران: من كل عظم وعصب وعرق. وقال عكرمة: حتى من أطراف شعره، وقال إبراهيم التيمى: من موضع كل شعرة، أى من جسده حتى من أطراف شعره.

وقال ابن جرير^(٥): ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أى من أمامه وخلفه، وفى رواية: وعن يمينه

(١) صحيح: رواه الترمذى بنحوه (٢٥٧٤)، أحمد بنحوه أيضاً (٨٢٢٥)، من حديث أبى هريرة. وانظر صحيح الترمذى.

(٢) المسند (٢٧٠٥٦).

(٣) المسند (٢١٧٨٢).

(٤) الطبرى فى التفسير (١٩٦/١٣).

(٥) الطبرى فى التفسير (١٩٦/١٣).

وشماله، ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم، ومن سائر أعضاء جسده.

وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال: أنواع العذاب الذي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم، وليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه لو كان يموت، ولكن لا يموت لأن الله تعالى قال: ﴿لَا يَقْتَضِي عَلَيْهِمْ قِيَمَتُهُمْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦] ومعنى كلام ابن عباس رضى الله عنهما أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب إلا إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت، ولكنه لا يموت ليخلد في دوام العذاب والتكال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

وقوله: ﴿وَمِنْ رِزْقِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أى وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ، أى مؤلم صعب شديد أغلظ من الذى قبله، وأدهى وأمر، وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُمْ لَأَكَلُونَ مِنْهَا فَأَلْوَتْ مِنْهَا الْبُطُونَ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ثُمَّ إِنَّ مَرْجَمَهُمْ لِأُولَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٤-٦٨] فأخبر أنهم تارة يكونون فى أكل زقوم، وتارة فى شرب حميم، وتارة يردون إلى جحيم، عيادًا بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَلْعَنُونَ فِيهَا وَيَن্ন حَمِيمٍ مَاءً﴾ [الرحمن: ٤٣-٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامٌ لِلْأَجْمِيرِ كَالْعِهْلِ يَقَعِي فِي الْبُطُونِ كَعَلَى الْحَمِيمِ حُدُودُهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٤٣-٥٠]، وقال: ﴿وَأَصْحَابُ النَّيَالِ مَا أَصْحَابُ النَّيَالِ فِي سُمُورٍ وَجَمِيرٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْتَبِرُونَ لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٤١-٤٤]، وقال تعالى: ﴿هَذَا وَاتَّكَ لِلطَّيغِينَ لَشَّرَ مَتَابِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا يَنْسِفُ إِلَيْهَا هَذَا قَلْدُوقُهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ وَءَاخِرٌ مِنْ شَكْلِهِهَ أَنْزَجُ﴾ [ص: ٥٥-٥٨] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه، وأشكاله مما لا يحصىه إلا الله عز وجل جزاءً وفاقاً ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلْمِىٍّ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [نفلت: ٤٦].

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلْوُ الْعَبِيدُ ﴿٥٦﴾﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح، فانهارت وهدمتها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أى مثل أعمال الذين كفروا يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى، لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء فلم يجدوا شيئاً، ولا ألفوا حاصلًا إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أى ذى ربح شديدة عاصفة قوية، فلا يقدرون على شيء من أعمالهم التى كسبوا فى الدنيا إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد فى هذا اليوم، كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبًّا شَتُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقول تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرَثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَمْلَكْنَاهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الهمز: ١١٧]، وقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُلْغُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقَةَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ رِثَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ

مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿البقرة: ٢٦٤﴾ ، وقوله في هذه الآية ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أى سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة، حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٣١﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٣٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة بأنه خلق السموات والأرض التى هى أكبر من خلق الناس ، أفليس الذى قدر على خلق هذه السموات فى ارتفاعها واتساعها وعظمتها ، وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات ، والحركات المختلفة ، والآيات الباهرات ، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد ، وبرارى وصحارى ، وقفار وبحار ، وأشجار ونبات ، وحيوان على اختلاف أصنافها ومنافعها وأشكالها والوانها ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ يُقَدِّرْ عَلَى أَنْ يُمِخَّ الْمَوْتُ بَلَى إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٣٣﴾﴾ [الاحقاف: ٣٣] .

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسَى خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِى جَعَلَ لَكَ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتَ مِنْهُ تُوقَدُونَ أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِنْ مِثْلِهِمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَنْزَلْنَاهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِى يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَيَأْتِيهِ الرُّجُوعُونَ ﴿يس: ٧٧-٨٣﴾ وقوله ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أى بعظيم ولا ممتنع بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره أن يذهبكم ويأت بأخرين على غير صفتكم كما قال: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْتَ الْفُقَرَاءَ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿فاطر: ١٥-١٧﴾ وقال: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿محمد: ٣٨﴾ وقال: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ رَبِّكَ مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ سَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ ﴿المائدة: ٥٤﴾ وقال: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿النساء: ١٣٣﴾ .

﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعِفَتُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْجَبٍ ﴿١٣٦﴾﴾

يقول تعالى ﴿وَبَرِّزُوا﴾ أى برزت الخلائق كلها برها وفاجرها لله الواحد القهار ، أى اجتمعوا له فى براز من الأرض وهو المكان الذى ليس فيه شىء يستر أحداً ﴿فَقَالَ الضُّعِفَتُوا﴾ وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ عن عبادة الله وحده لا شريك له وعن موافقة الرسل فقالوا لهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أى مهما أمرتمونا اتهمنا وفعلنا ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أى فهل تدفون عنا شيئاً من عذاب الله كما كنتم تعدوننا وتمنوننا ، فقالت القادة لهم: ﴿لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ ولكن حق علينا قول ربنا ، وسبق فينا وفيكم قدر الله ، وحققت كلمة العذاب على الكافرين ، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْجَبٍ﴾ أى ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا

عليه أو جزعنا منه .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إن أهل النار قال بعضهم لبعض : تعالوا فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بيكائهم وتضرعهم إلى الله عز وجل ، تعالوا نيك وتضرع إلى الله فيكوا وتضرعوا فلما رأوا أنه لا ينفعهم قالوا : تعالوا فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر ، تعالوا حتى نصبر فصبروا صبراً لم ير مثله ، فلم ينفعهم ذلك ، فعند ذلك قالوا ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَّحْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ ، قلت : والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها ، كما قال تعالى : ﴿وَرَادَ يَتَحَلَّجُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الصُّعْفَتُوا لَلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَشْرَ مُغْتَبَرُوكَ عَنَّا نَصِيْبًا مِنَ النَّارِ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْوَبَاكِ﴾ [غافر: ٤٧-٤٨] وقال تعالى : ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنْتَ أُخْتَبَأَ حَتَّى إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جِيعًا قَالَتْ أَخْرِجْنَهُمْ لِأَوْلَانَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَسْأَلُونَا فَجَاهِدْهُمْ عِدَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَمْلِكُونَ وَقَالَتْ أَوْلَانَهُمْ لِأَخْرَجْنَاهُمْ مِمَّا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلٍ فذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الاعراف: ٣٨-٣٩] ، وقال تعالى : ﴿يَوْمَ نَقَلُّكُمْ وَجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا بَنِيَّانَا أَلَمْنَا اللَّهُ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ وقالوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكَرِهْنَا فَأَسْأَلُونَا السَّبِيلَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا أَنهَمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَاللَّهُ لَمَّا كَبُرَ ﴿٣٨﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨] وأما تخصصهم في المحشر ، فقال تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ رَدُّوا عَلَى الظَّالِمِينَ مَوْفُورَاتٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنَّهُمْ لَكُم مَوْمِنِينَ﴾ قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أَنَّهُمْ سَدَدْنَا عَنْهُمُ الْبَابَ إِذْ جَاءَهُمْ بَلٌّ كُنتُمْ مُتَجَرِّمِينَ ﴿٣٩﴾ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بَلْ مَكْرٌ آتِيلٌ وَالنَّهَارُ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرَأْنَا أَنفُسَنَا لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْدَلَ فِي أَصْحَابِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٠﴾ [سبا: ٣١-٣٢] .

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّكَ اللَّهُ وَعَدَّكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ وَعَدَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَمُوا أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٤١﴾ وَأَدْخَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحَيِّئُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٤٢﴾﴾

يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعدما قضى الله بين عباده ، فأدخل المؤمنين الجنات ، وأسكن الكافرين الدركات ، فقام فيهم إبليس لعنه الله يومئذ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم ، وغيباً إلى غيبهم ، وحسرة إلى حسرتهم ، فقال : ﴿إِنَّكَ اللَّهُ وَعَدَّكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ﴾ أي على السنة رسله ، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة ، وكان وعداً حقاً وخيراً صدقاً ، وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم ، كما قال الله تعالى : ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوبًا﴾ [النساء: ١٢٠] ، ثم قال : ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق فيما وعدتكم به ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ بمجرد ذلك ، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاءوكم به ، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿فَلَا تَلُمُونِي﴾ اليوم ﴿وَلَوْلَمُوا﴾

أَنْفُسَكُمْ ﴿ فَإِنَّ الذَّنْبَ لَكُمْ لَكُمْ لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ أى بنافعكم فمفدكم ومخلصكم مما أنتم فيه ، ﴿ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ أى بنافعى بإنقاذى مما أنا فيه من العذاب والنكال ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ﴾ قال قتادة : أى بسبب ما أشركتمون من قبل .

وقال ابن جرير : يقول : إني جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجل ، وهذا الذى قاله هو الراجح ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَهٌ إِلَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُيِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥-٦] ، وقال : ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِئَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨٢] .

وقوله : ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ أى فى إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل ، لهم عذاب أليم ، والظاهر من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار كما قدمنا ، ولكن قد ورد فى حديث رواه ابن أبى حاتم ، وهذا لفظه ، وابن جرير ^(١) من رواية عبد الرحمن بن زياد : حدثنى دخين الحجرى عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ففضى بينهم ففرغ من القضاء ، قال المؤمنون : قد قضى بيننا ربنا ، فمن يشفع لنا؟ فيقولون : انطلقوا بنا إلى آدم ، وذكر نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى فيقول عيسى : أدلكم على النبى الأسمى ، فيأتونى ، فيأذن الله لى أن أقوم إليه فيثور من مجلسى من أطيب ريح شمها أحد قط ، حتى أتى ربه فيشفعنى ويجعل لى نوراً من شعر رأسى إلى ظفر قدمى ، ثم يقول الكافرون : هذا قد وجد المؤمنون من يشفع لهم ، فمن يشفع لنا؟ ما هو إلا إبليس هو الذى أضلنا ، فيأتون إبليس فيقولون : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم ، فقم أنت فاشفع لنا ، فإنك أنت أضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه من أنتن ريح شمها أحد قط ، ثم يعظم نحيبهم ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسَكُمْ ﴾ وهذا سياق ابن أبى حاتم ، ورواه ابن المبارك عن رشدين بن سعد عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، عن دخين عن عقبة به مرفوعاً .

وقال محمد بن كعب القرظى رحمه الله : لما قال أهل النار ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم: ٢١] قال لهم إبليس ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ ﴾ الآية ، فلما سمعوا مقالته ، مقتوا أنفسهم فنودوا ﴿ لَمَقَّتْ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ دَعَوْتُمْ إِلَى الْإِيمَانِ فَكَفَرْتُمْ ﴾ [غانر: ١٠] وقال عامر الشعبي : يقوم خطيبان يوم القيامة على رؤوس الناس ، يقول الله تعالى لعيسى ابن مريم : ﴿ وَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي وَالْهَيْبَةَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ إلى قوله ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٩] قال : ويقوم إبليس لعنه الله فيقول ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ الآية . ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزى والنكال ، وأن خطيبهم إبليس عطف قال السعداء ، وأنهم يدخلون يوم القيامة جنات تجرى من تحتها الأنهار سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ماكثين أبداً لا يحولون ولا يزولون ﴿ يَا ذُنُوبَكُمْ رِيبَهُمْ خَيَّبَتْهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [الزمر: ٧٣] ، وقال تعالى :

﴿وَالْمَلَكُ يُدْخِلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَزَّلْنَا فِيهَا قَبِيحَةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَفَيْتُهُمْ فِيهَا سَلَامًا وَآخِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنِ السَّلَامُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَّبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةَ طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١﴾ تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾ وَمِثْلَ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٣﴾﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿مَثَلًا كَلِمَةَ طَيِّبَةً﴾ شهادة أن لا إله إلا الله ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهو المؤمن، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن، ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ يقول يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء، وهكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وغير واحد: إن ذلك عبارة عن عمل المؤمن، وقوله الطيب، وعمله الصالح، وإن المؤمن كشجرة من النخل لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت صباح ومساء، وهكذا رواه السدي عن مرث عن ابن مسعود قال: هي النخلة، وشعبة عن معاوية بن قرة عن أنس: هي النخلة. وحمام بن سلمة عن شعيب بن الحبحاب عن أنس أن رسول الله ﷺ أتى بقرآن بسر فقرأ ﴿مَثَلًا كَلِمَةَ طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: هي النخلة^(١)، وروى من هذا الوجه ومن غيره عن أنس موقوفاً، وكذا نص عليه مسروق ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وقاتدة وغيرهم.

وقال البخاري^(٢): حدثنا عبيد بن إسماعيل عن أبي أسامة، عن عبيد الله عن نافع، عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أخبروني عن شجرة تشبه - أو - كالرجل المسلم لا يتحات ورقها صيفاً ولا شتاء، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها» قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً، قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة»، فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة. قال: ما منعك أن تكلم؟ قلت: لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً، قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إلى من كذا وكذا.

وقال أحمد^(٣): حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: صحبت ابن عمر إلى المدينة فلم أسمعهم يحدث عن رسول الله ﷺ إلا حديثاً واحداً قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأتى بجمار، فقال: «إن من الشجر شجرة مثلها كمثل الرجل المسلم» فأردت أن أقول هي النخلة، فنظرت فإذا أنا أصفر القوم فسكت، فقال رسول الله ﷺ: «هي النخلة»، أخرجاه. وقال مالك وعبد العزيز عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه: «إن من الشجر شجرة لا يطرح ورقها مثل المؤمن». قال: فوقع الناس في شجر البوادي، ووقع في قلبي أنها النخلة، فاستحييت حتى قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة»^(٤)، أخرجاه أيضاً.

(١) ضعيف مرفوع: أخرجه الترمذي برقم (٣١١٩)، وانظر ضعيف الترمذي للالباني.

(٢) البخاري برقم (٤٦٩٨). (٣) المسند (٤٥٨٥).

(٤) أخرجه البخاري برقم (٦٢)، مسلم برقم (٢٨١١).

وقال ابن أبي حاتم^(١): حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبان يعني ابن يزيد العطار، حدثنا قتادة أن رجلا قال: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، فقال: «أرأيت لو عمد إلى متاع الدنيا فركب بعضه على بعض أكان يبلغ السماء، أفلا أخبرك بعمل أصله في الأرض وفرعه في السماء؟» قال: ما هو يا رسول الله؟ قال: «تقول لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، عشر مرات في دبر كل صلاة، فذاك أصله في الأرض وفرعه في السماء». وعن ابن عباس ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: هي شجرة في الجنة. وقوله: ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ قيل: غدوة وعشيا، وقيل: كل شهر. وقيل: كل سنة شهرين. وقيل: كل ستة أشهر. وقيل: كل سبعة أشهر. وقيل: كل سنة، والظاهر من السياق أن المؤمن مثله كمثل شجرة لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف أو شتاء أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين ﴿يَأْذِنُ رَيْهَانًا﴾ أي كاملا حسنا كثيرا طيبا مباركا ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هذا مثل كفر الكافر لا أصل له ولا ثبات، وشبهه بشجرة الحنظل، ويقال لها الشريان، رواه شعبة عن معاوية بن قره عن أنس بن مالك: أنها شجرة الحنظل وقال أبو بكر البزار^(٢) الحافظ: حدثنا يحيى بن محمد السكن، حدثنا أبو زيد سعيد بن الربيع، حدثنا شعبة عن معاوية بن قره عن أنس أحسبه رفعه، قال ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: هي النخلة، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ قال: هي الشريان، ثم رواه عن محمد بن المنشى عن غندر عن شعبة، عن معاوية عن أنس موقوفا. وقال ابن أبي حاتم^(٣): حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد هو ابن سلمة عن شعيب بن الحبحاب، عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: ﴿«وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي الحنظلة» فأخبرت بذلك أبا العالية فقال: هكذا كنا نسمع. ورواه ابن جرير^(٤) من حديث حماد بن سلمة به.

ورواه أبو يعلى^(٥) في مسنده بأبسط من هذا فقال: حدثنا غسان عن حماد عن شعيب، عن أنس أن رسول الله ﷺ أتى بقرع عليه بسر، فقال: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ يَأْذِنُ رَيْهَانًا﴾ فقال «هي النخلة» ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ آجَنْتٌ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ قال: «هي الحنظل» قال شعيب: فأخبرت بذلك أبا العالية فقال: كذلك كنا نسمع. وقوله: ﴿آجَنْتٌ﴾ أي استوصلت ﴿مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أي لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يتقبل منه شيء.

(١) مرسل: ورجاله كلهم ثقات.

(٢) أخرجه ابن الجعد في مسنده (١٧٠/١)، برقم (١١٠٧).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢٢٣/٢)، برقم (٤٧٥).

(٤) في التفسير (٢١٢/١٣).

(٥) أبو يعلى في مسنده (١٨٢/٧)، برقم (٤١٦٥).

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُصَلِّ اللَّهُ
الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿٢٧﴾

قال البخارى (١) : حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، أخبرنى علقمة بن مرثد قال : سمعت سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «المسلم إذا سئل فى القبر شهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فذلك قوله : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾» ورواه مسلم (٢) أيضاً وبقية الجماعة كلهم من حديث شعبة به .

وقال الإمام أحمد (٣) : حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن المنهال بن عمرو، عن زاذان عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ ، وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفى يده عود ينكت به الأرض، فرفع رأسه فقال : «استعيذوا بالله من عذاب القبر» مرتين أو ثلاثاً، ثم قال : «إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه، فيقول : أيتها النفس الطيبة اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان - قال - : فتخرج تسيل، كما تسيل القطرة من فى السماء، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها، يعنى على ملا من الملائكة، إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون : فلان بن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له، فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربواها إلى السماء التى تليها، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة، فيقول الله : اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه إلى الأرض، فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى قال : فتعاد روحه فى جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك؟ فيقول : ربي الله ، فيقولان له : ما دينك؟ فيقول : دينى الإسلام، فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول : هو رسول الله ، فيقولان له : وما علمك؟ فيقول : قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقته، فينادى مناد من السماء : أن صدق عبدى فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة - قال - : فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول : أبشر بالذى يسرك هذا يومك الذى كنت توعده، فيقول له : من أنت فوجهك الوجه الذى يجىء بالخير؟ فيقول : أنا عمك الصالح، فيقول : رب أقم الساعة رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلى ومالى - قال - : وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح، فجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول : أيتها

(٢) مسلم بنحوه (٢٨٧١).

(١) البخارى برقم (٤٦٩٩).

(٣) المسند (١٨٠٦٣).

النفس الخبيثة، اخرجني إلى سخط من الله وغضب - قال - : فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، وتخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له - ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] فيقول الله: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فتطرح روحه طرحاً - ثم قرأ ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ رِجُّ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيبٍ﴾ [الحج: ٣١] فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادى مناد من السماء: أن كذب عبدى فأفرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، متنن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعده، فيقول: ومن أنت، فوجهك الوجه يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عمالك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة» ورواه أبو داود من حديث الأعمش والنسائي وابن ماجه من حديث المنهال بن عمرو به.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن يونس بن خباب عن المنهال بن عمرو، عن زاذان عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة، فذكر نحوه، وفيه «حتى إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء، وفتحت أبواب السماء ليس من أهل باب إلا وهم يدعون إلى الله عز وجل أن يعرج بروحه من قبلهم»، وفي آخره «ثم يقبض له أعمى أصم أبكم، وفي يده مرزبة لو ضرب بها جبل لكان تراباً، فيضربه ضربة فيصير تراباً، ثم يعيده الله عز وجل كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصبح صبيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين».

قال البراء: ثم يفتح له باب إلى النار ويمهد له من فرش النار، وقال سفيان الثوري عن أبيه، عن خيشمة عن البراء في قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ قال عذاب القبر .

وقال المسعودي عن عبد الله بن مخارق عن أبيه عن عبد الله قال: إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره فيقال له: ما ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ فيشبهه الله فيقول: ربي الله، ودينى الإسلام، ونبيى محمد ﷺ، وقرأ عبد الله ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ وقال الإمام عبد بن حميد^(٢) رحمه الله فى مسنده حدثنا يونس بن محمد، حدثنا شيبان بن عبد الرحمن عن قتادة، حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا وضع فى قبره، وتولى عنه

(١) المسند (١٨١٤٠).

(٢) صحيح: مسند عبد بن حميد (١/٣٥٦)، برقم (١١٨٠)، وانظر صحيح الجامع، برقم (١٦٧٥).

أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم، فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ قال: فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، قال: فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة، قال نبي الله ﷺ: «فيراها جميعًا»، قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعًا، ويملا عليه خصرًا إلى يوم القيامة، رواه مسلم^(١) عن عبد بن حميد، وأخرجه النسائي^(٢) من حديث يونس بن محمد المؤدب به.

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا يحيى بن سعيد عن ابن جريج، أخبرني أبو الزبير أنه سأل جابر بن عبد الله عن فتاني القبر، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذه الأمة تتبلى في قبورها، فإذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه، جاءه ملك شديد الانتهاز، فيقول له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول المؤمن: أقول إنه رسول الله ﷺ وعبده، فيقول له الملك: انظر إلى مقعدك الذي كان لك في النار قد أنجلك الله منه وأبدلك بمقعدك الذي ترى من النار مقعدك الذي ترى من الجنة، فيراها كليهما، فيقول المؤمن: دعوني أبشر أهلي فيقال له: اسكن، وأما المنافق فيقعد إذا تولى عنه أهله فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، أقول كما يقول الناس، فيقال له: لا دريت هذا مقعدك الذي كان لك من الجنة قد أبدلت مكانه مقعدك من النار» قال جابر: فسمعت النبي ﷺ يقول: «يبعث كل عبد في القبر على ما مات، المؤمن على إيمانه، والمنافق على نفاقه» إسناده صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا أبو عامر، حدثنا عباد بن راشد عن داود بن أبي هند، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري، قال: شهدنا مع رسول الله ﷺ جنازة، فقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إن هذه الأمة تتبلى في قبورها، فإذا الإنسان دفن وتفرق عنه أصحابه، جاءه ملك في يده مطراق من حديد فأقعده، فقال: ما تقول في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمنًا قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فيقول له: صدقت ثم يفتح له بابًا إلى النار، فيقول: كان هذا منزلك لو كفرت بربك، فأما إذ آمنت فهذا منزلك، فيفتح له بابًا إلى الجنة، فيريد أن ينهض إليه فيقول له: اسكن ويفسح له في قبره، وإن كان كافرًا أو منافقًا فيقول له: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا، فيقول: لا دريت ولا تليت ولا اهتديت، ثم يفتح له بابًا إلى الجنة، فيقول له: هذا منزلك لو آمنت بربك، فأما إذ كفرت به فإن الله عز وجل أبدلك به هذا، فيفتح له بابًا إلى النار ثم يغمعه قمعًا بالمطراق، فيصيح صيحة يسمعها خلق الله عز وجل كلهم غير الثقلين، فقال بعض القوم: يا رسول الله، ما أحد يقوم عليه ملك في يده مطراق إلا هبل عند ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «يُنْتَبِئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ» وهذا أيضًا إسناده لا بأس به، فإن عباد بن راشد التميمي روى له البخاري مقروئًا، ولكن ضعفه بعضهم.

(١) مسلم برقم (٢٨٧٠)، وكذلك أخرجه البخاري برقم (١٣٣٨)، من حديث قتادة عن أنس، فليعلم.

(٢) صحيح: النسائي برقم (٢٠٥٠)، من حديث أنس. وانظر صحيح النسائي.

(٣) المسند (١٤٣١٢)، مع اختلاف في السند «حدثنا موسى بن داود حدثنا ابن لهيعة عن أبي الزبير...»

(٤) المسند (١٠٦١٧).

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا حسين بن محمد عن ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب، اخرجى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان. قال فلا يزال يقال لها ذلك، حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقولون: مرحباً بالروح الطيبة كانت فى الجسد الطيب، ادخلى حميدة، وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان. قال: فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل. وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث، اخرجى ذميمة وأبشرى بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث، ارجعى ذميمة فإنه لا تفتح لك أبواب السماء، فيرسل من السماء ثم يصير إلى القبر، فيجلس الرجل الصالح، فيقال له مثل ما قيل فى الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل له فى الحديث الأول. ورواه النسائي وابن ماجه^(٢) من طريق ابن أبي ذئب بنحوه.

وفى صحيح مسلم^(٣) عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: إذا خرجت روح العبد المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها. قال حماد: فذكر من طيب ريحها وذكر المسك - قال - ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعميرنه، فينطلق به إلى ربه عز وجل، فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل. وإن الكافر إذا خرجت روحه - قال حماد - وذكر من نتنها، وذكر لعنًا، ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قبل الأرض، قال: فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل - قال أبو هريرة: فرد رسول الله ﷺ ريطة كانت عليه على أنفه هكذا.

وقال ابن حبان^(٤) فى صحيحه: حدثنا عمر بن محمد الهمداني، حدثنا زيد بن أوزم، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنى أبى عن قتادة، عن قسام بن زهير، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ قال «إن المؤمن إذا قبض، أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجى إلى روح الله، فتخرج كأطيب ريح مسك حتى إنه ليناوله بعضهم بعضًا يشمونهم حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون: ما هذه الريح الطيبة التى جاءت من قبل الأرض، ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك حتى يأتون به أرواح المؤمنين، فلهم أشد فرحًا به من أهل الغائب بغائبهم، فيقولون: ما فعل فلان؟ فيقولون: دعوه حتى يستريح فإنه كان فى غم، فيقول: قد مات أما أناكم؟ فيقولون: ذهب به إلى أمه الهاوية، وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح فيقولون: اخرجى إلى غضب الله، فتخرج كأنتن ريح جيفة، فيذهب به إلى باب الأرض».

(١) المسند (٨٥٥١).

(٢) صحيح: ابن ماجه برقم (٤٢٦٢)، وانظر صحيح ابن ماجه.

(٣) مسلم برقم (٢٨٧٢).

(٤) صحيح: صحيح ابن حبان (٢٨٤/٧)، برقم (٣٠١٤)، وانظر صحيح الجامع، برقم (٤٩٠).

وقد روى أيضًا من طريق همام بن يحيى عن قتادة عن أبي الجوزاء، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه، قال «يسأل: ما فعل فلان، ما فعل فلان، ما فعلت فلانة؟ قال: وأما الكافر فإذا قبضت نفسه، وذهب بها إلى باب الأرض، تقول خزنة الأرض: ما وجدنا ريحًا أنتن من هذه، فتبلغ بها الأرض السفلى». قال قتادة وحدثني رجل عن سعيد بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو قال: أرواح المؤمنين تجتمع بالجائيتين، وأرواح الكفار تجتمع بيرهوت سبخة بحضرموت^(١).

وقال الحافظ أبو عيسى الترمذي^(٢) رحمه الله: حدثنا يحيى بن خلف، حدثنا بشر بن المفضل عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قبر الميت - أو قال: أحدكم - أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما المنكر والآخر النكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: ما كان يقول هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعًا في سبعين، ثم ينور له فيه، ثم يقال له: نم، فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقولان: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك، وإن كان منافقًا قال: سمعت الناس يقولون: فقلت مثله لا أدري، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا، ويقال للأرض: التثمي عليه فتلتثم عليه فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذبًا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك» ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وقال حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ» - قال: - ذلك إذا قيل له في القبر من ربك، وما دينك، ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد جاءنا بالبينات من عند الله، فأمنت به وصدقت، فيقال له: صدقت، على هذا عشت، وعليه مت، وعليه تبعث^(٣).

وقال ابن جرير^(٤): حدثنا مجاهد بن موسى والحسن بن محمد، قالا: حدثنا يزيد، أنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسى بيده، إن الميت ليسمع خفق نعالكم حين تولون عنه مدبرين، فإن كان مؤمنًا كانت الصلاة عند رأسه والزكاة عند رجله، فيؤتى من عند رأسه، فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، فيؤتى من عن يمينه فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، فيؤتى عن يساره فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، فيؤتى من عند رجله فيقول: فعل الخيرات ما قبلي مدخل، فيقال: اجلس، فيجلس قد مثلت له الشمس قد دنت للغروب، فيقال له: أخبرنا عما نسألك، فيقول: دعني دعنى حتى أصلى، فيقال له: إنك ستفعل فأخبرنا عما نسألك، فيقول: عم تسألوني؟ فيقال: أرايت هذا الرجل الذى كان فيكم ماذا تقول فيه، وماذا تشهد به عليه؟

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢٨٣/٧)، برقم (٣٠١٣).

(٢) حسن: الترمذي برقم (١٠٧١)، وانظر صحيح الترمذي.

(٣) الطبري (٢١٥/١٣). (٤) انظر السابق.

فيقول: أمحمد؟ فيقال له: نعم، فيقول: أشهد أنه رسول الله، وأنه جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه، فيقال له: على ذلك حبيت وعلى ذلك مت، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً وينور له فيه، ويفتح له باب إلى الجنة فيقال له: انظر إلى ما أعد الله لك فيها، فيزداد غبطة وسروراً، ثم تجعل نسمة في النسم الطيب، وهى طير خضر تعلق بشجر الجنة، ويعاد الجسد إلى ما بدىء منه من التراب»، وذلك قول الله عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، رواه ابن حبان^(١) من طريق المعتمر بن سليمان عن محمد بن عمر، وذكر جواب الكافر وعذابه.

وقال البزار^(٢): حدثنا سعيد بن بحر القراطيسي، حدثنا الوليد بن القاسم، حدثنا يزيد بن كيسان عن أبي حازم، عن أبي هريرة أحسبه رفعه، قال: «إن المؤمن ينزل به الموت ويعاين ما يعاين، فيود لو خرجت، يعنى نفسه، والله يحب لقاءه وإن المؤمن يصعد بروحه الى السماء، فتأتيه أرواح المؤمنين فتستخبره عن معارفهم من أهل الأرض، فإذا قال: تركت فلاناً في الأرض، أعجبهم ذلك، وإذا قال: إن فلاناً قد مات، قالوا: ما جىء به إلينا، وإن المؤمن يجلس فى قبره فيسأل، من ربك؟ فيقول: ربي الله، ويسأل: من نبيك؟ فيقول: محمد نبيى، فيقول: ما دينك؟ قال: دينى الإسلام، فيفتح له باب فى قبره فيقول - أو يقال - انظر إلى مجلسك، ثم يرى القبر فكأنما كانت رقدة، وإذا كان عدو الله نزل به الموت وعاین ما عاین، فإنه لا يحب أن تخرج روحه أبداً، والله يبغض لقاءه، فإذا جلس فى قبره أو اجلس، فيقال له: من ربك؟ فيقول: لا أدري، فيقال: لا دريت، فيفتح له باب إلى جهنم ثم يضرب ضربة تسمعها كل دابة إلا الثقلين، ثم يقال له: نم كما ينام المنهوش». قلت لأبى هريرة: ما المنهوش؟ قال: الذى تهشه الدواب والحيات، ثم يضيق عليه قبره، ثم قال: لا نعلم رواه إلا الوليد بن القاسم.

وقال الإمام أحمد^(٣) رحمه الله: حدثنا حجین بن المشنى، حدثنا عبد العزيز بن أبى سلمة الماجشون عن محمد بن المنكدر قال: كانت أسماء، يعنى بنت الصديق رضى الله عنها، تحدث عن النبى ﷺ قالت: قال: «إذا دخل الإنسان قبره، فإن كان مؤمناً أحف به عمله الصلاة والصيام، قال: فيأتيه الملك من نحو الصلاة فترده ومن نحو الصيام فيرده، قال: فيناديه اجلس قال: فيجلس، فيقول له: ماذا تقول فى هذا الرجل، يعنى النبى ﷺ؟ قال: من؟ قال: محمد، قال: أنا أشهد أنه رسول الله، قال: يقول: وما يدريك، أدركته؟ قال: أشهد أنه رسول الله، قال: يقول على ذلك عشت، وعليه مت، وعليه تبعث وإن كان كافراً جاءه الملك ليس بينه وبينه شىء يرده فأجلسه، فيقول له: ماذا تقول فى هذا الرجل؟ قال: أى رجل؟ قال: محمد؟ قال: يقول: والله ما أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته، فيقول له الملك: على ذلك عشت، وعليه مت، وعليه

(١) في صحيحه (٣٨١/٧)، برقم (٣١١٣).

(٢) ذكره الهيثمي في المجمع (٥٢/٣)، وقال: رواه البزار ورجاله ثقات خلا سعد بن سجر القراطيسي، فإني لم أرفه، لكن تعقبه ابن حجر في مختصر الزوائد فقال: وهو موثق، ولم ينفرد به.

(٣) إسناده صحيح: المسند (٢٦٤٣٦)، وذكره الهيثمي في المجمع (٥٤/٣)، وقال: رجال أحمد رجال الصحيح.

تبعث، قال: ويسلط عليه دابة في قبره معها سوط، ثمرته جمرة مثل عرق البعير، تضربه ما شاء الله، صماء لا تسمع صوته فترحمه».

وقال العوفي عن ابن عباس رضى الله عنهما في هذه الآية قال: إن المؤمن إذا حضره الموت شهدته الملائكة، فسلموا عليه وبشروه بالجنة، فإذا مات مشوا مع جنازته ثم صلوا عليه مع الناس، فإذا دفن أجلس في قبره، فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقال له: من رسولك؟ فيقول: محمد ﷺ، فيقال له: ما شهادتك؟ فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فيوسع له في قبره مد بصره، وأما الكافر فتنزّل عليه الملائكة فيسبطون أيديهم، والبسط هو الضرب، ﴿يَتَرَوْنَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠] عند الموت، فإذا أدخل قبره أقعد، فقيل له: من ربك؟ فلم يرجع إليهم شيئاً، وأنساه الله ذكر ذلك، وإذا قيل: من الرسول الذي بعث إليك؟ لم يهتد ولم يرجع إليهم شيئاً ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم الأودي حدثنا شريح بن مسلمة، حدثنا إبراهيم بن يوسف عن أبيه عن أبي إسحاق، عن عامر بن سعد البجلي عن أبي قتادة الأنصاري في قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ الآية، قال: إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره، فيقال له: من ربك؟ فيقول: الله، فيقال له: من نبيك؟ فيقول: محمد بن عبد الله، فيقال له ذلك مرات، ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى منزلك في النار لو زغت، ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلك من الجنة لو ثبت، وإذا مات الكافر أجلس في قبره فيقال له: من ربك؟ من نبيك؟ فيقول: لا أدري كنت أسمع الناس يقولون، فيقال له: لا دريت، ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلك إذ ثبت، ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى منزلك إذ زغت، فذلك قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾.

وقال عبد الرزاق عن معمر بن ابن طاووس، عن أبيه ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: لا إله إلا الله، ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ المسألة في القبر، وقال قتادة أما الحياة للدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح، ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ في القبر وكذا روى عن غير واحد من السلف. وقال أبو عبد الله الحكيم الترمذي^(١) في كتابه نوادر الأصول: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن نافع عن ابن أبي فديك عن عبد الرحمن بن عبد الله عن سعيد بن المسيب، عن عبد الرحمن بن سمرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن في مسجد المدينة، فقال: «إني رأيت البارحة عجباً، رأيت رجلاً من أمتي جاءه ملك الموت ليقبض روحه، فجاءه بره بوالديه، فرد عنه، ورأيت رجلاً من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر، فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين، فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب، فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم، ورأيت رجلاً من أمتي يلهث عطشاً كلما ورد حوضاً منع منه، فجاءه صيامه فسقاه وأرواه، ورأيت رجلاً من أمتي والنبيون قعود حلقاً حلقاً، كلما دنا لحلقة

(١) ضعيف: نوادر الأصول (٣/٢٣٤)، وانظر ضعيف الجامع، برقم (٢٠٨٦).

طردوه، فجاءه اغتساله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده إلى جنبى، ورأيت رجلا من أمتى بين يديه ظلمة، ومن خلفه ظلمة، وعن يمينه ظلمة، وعن شماله ظلمة، ومن فوقه ظلمة، ومن تحته ظلمة، وهو متحير فيها، فجاءته حجته وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه النور، ورأيت رجلا من أمتى يكلم المؤمنين فلا يكلمونه، فجاءته صلة الرحم فقالت: يا معشر المؤمنين، كلموه فكلموه، ورأيت رجلا من أمتى يتقى وهج النار وشررها بيده عن وجهه، فجاءته صدقته فصارت سترًا على وجهه وظلا على رأسه، ورأيت رجلا من أمتى قد أخذته الزبانية من كل مكان، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم وأدخلاه مع ملائكة الرحمة، ورأيت رجلا من أمتى جاثيًا على ركبتيه بينه وبين الله حجاب، فجاءه حسن خلقه، فأخذ بيده فأدخله على الله عز وجل، ورأيت رجلا من أمتى قد هوت صحيفته من قبل شماله، فجاءه خوفه من الله، فأخذ صحيفته فجعلها فى يمينه، ورأيت رجلا من أمتى قد خف ميزانه، فجاءته أفراطه فثقلوا ميزانه، ورأيت رجلا من أمتى قائما على سفير جهنم، فجاءه وجله من الله فاستنقذه من ذلك ومضى، ورأيت رجلا من أمتى هوى فى النار فجاءته دموعه التى بكى من خشية الله فى الدنيا، فاستخرجته من النار، ورأيت رجلا من أمتى قائما على الصراط يرعد كما ترعد السعفة فجاء حسن ظنه بالله فسكن رعدته ومضى، ورأيت رجلا من أمتى على الصراط يزحف أحيانا ويحبو أحيانا، فجاءته صلاته على، فأخذت بيده، فأقامته ومضى على الصراط، ورأيت رجلا من أمتى انتهى إلى أبواب الجنة، فغلقت الأبواب دونه، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة، قال القرطبي بعد إيراده هذا الحديث من هذا الوجه: هذا حديث عظيم ذكر فيه أعمالا خاصة تنجى من أهوال خاصة، أورده هكذا فى كتابه التذكرة.

وقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلى^(١) فى هذا حديثا غريبا مطولا فقال: حدثنا أبو عبد الله أحمد بن إبراهيم النكرى، حدثنا محمد بن بكر البرسانى أبو عثمان، حدثنا أبو عاصم الحبطى، وكان من أخيار أهل البصرة، وكان من أصحاب حزم، وسلام بن أبى مطيع، حدثنا بكر بن خنيس عن ضرار بن عمرو، عن يزيد الرقاشى، عن أنس بن مالك عن تميم الدارى، عن النبى ﷺ قال: يقول الله عز وجل لملك الموت: انطلق إلى ولى فأتني به، قد ضربته بالسراء والضراء، فوجدته حيث أحب، اتنتى به فلأريحنه، فينطلق إليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة معهم أكفان وحنوط من الجنة، ومعهم ضباط الرياحان أصل الرياحانة واحد، وفى رأسها عشرون لونا لكل لون منها ريح سوى ريح صاحبه، ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك الأذفر، فيجلس ملك الموت عند رأسه وتحف به الملائكة، ويضع كل ملك منهم يده على عضو من أعضائه، ويسط ذلك الحرير الأبيض والمسك الأذفر من تحت ذقنه، ويفتح له باب إلى الجنة، فإن نفسه لتعلل عند ذلك بطرف الجنة مرة بأزواجها، ومرة بكسوتها، ومرة بشمارها كما يعلل الصبى أهله إذا بكى، قال: إن أزواجه ليتهشن عند ذلك ابتهاشا، قال: وتبرز الروح، قال البرسانى: يريد أن تخرج من العجل إلى ما تحب، قال: ويقول ملك الموت، اخرجى يا أيتها الروح الطيبة إلى سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود، وماء

(١) إسناده ضعيف: لضعف يزيد الرقاشى وبه أعلى المصنف، والحديث غير موجود فى المطبوع من مسند أبي يعلى فلعله فى مسنده الكبير والله أعلم، وقد أخرجه من طريق أبي يعلى ابن عساكر فى التاريخ (٣/٥٢٨).

صدقت، قال: فيدفعان القبر فيوسعان من بين يديه أربعين ذراعًا، وعن يمينه أربعين ذراعًا، وعن شماله أربعين ذراعًا، ومن خلفه أربعين ذراعًا، ومن عند رأسه أربعين ذراعًا، ومن عند رجله أربعين ذراعًا، قال: فيوسعان له مائتي ذراع، قال البرساني: وأحسبه وقال أربعون ذراعًا تحاط به، قال: ثم يقولان له: انظر فوقك، فإذا باب مفتوح إلى الجنة، قال فيقولان له: ولي الله هذا منزلك إذ أظعت الله، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، إنه يصل إلى قلبه عند ذلك فرحة ولا ترتد أبدًا» ثم يقال له: انظر تحتك، قال: فينظر تحته فإذا باب مفتوح إلى النار - قال - فيقولان: ولي الله هذا منزلك لو عصيت نجوت آخر ما عليك - قال: فقال رسول الله ﷺ - إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتد أبدًا» قال: فقالت عائشة: يفتح له سبعة وسبعون بابًا إلى الجنة، يأتيه ريحها ويردها حتى يبعثه الله عز وجل.

وبالإسناد المتقدم إلى النبي ﷺ قال: «ويقول الله تعالى لملك الموت: انطلق إلى عدوى فأنتي به، فأني قد بسطت له رزقي، ويسرت له نعمتي، فأبى إلا معصيتي فأنتي به، لأنتقم منه، قال: فينطلق إليه ملك الموت في أكره صورة رأها أحد من الناس قط، له اثنتا عشرة عينًا، ومعه سفود من النار، كثير الشوك ومعه خمسمائة من الملائكة معهم نحاس وجمر من جمر جهنم، ومعهم سياط من نار لينها لين السياط، وهي نار تأجج، قال: فيضربه ملك الموت بذلك السفود ضربة يغيب كل أصل شوكة من ذلك السفود في أصل كل شعرة وعرق وظفر، قال: ثم يلويه ليًا شديدًا، قال: فينزح روحه من أظفار قدميه، قال: فيلقياها في عقبيه، فيسكر عدو الله عند ذلك سكرة فيرفه ملك الموت عنه، قال: وتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط، قال: ثم ينثره ملك الموت نثره فينزح روحه من عقبيه فيلقياها في ركبتيه، قال: فيسكر عدو الله عند ذلك سكرة فيرفه ملك الموت عنه، قال: وتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط، قال: فيشده ملك الموت شدة فينزح روحه من ركبتيه فيلقياها في حقويه، فيسكر عدو الله عند ذلك سكرة فيرفه ملك الموت عنه، قال: فتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط، قال كذلك: إلى صدره ثم كذلك إلى حلقه، قال: ثم تبسط الملائكة ذلك النحاس وجمر جهنم تحت ذقنه، قال: ويقول ملك الموت: اخرجي أيتها الروح اللعينة الملعونة إلى سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم - قال: فإذا قبض ملك الموت روحه، قال الروح للجسد: جزاك الله عنى شرًا فقد كنت سريعًا بي إلى معصية الله، بطيئًا بي عن طاعة الله، فقد هلكت وأهلكت - قال - ويقول الجسد للروح مثل ذلك، وتلعنه بقاع الأرض التي كان يعصى الله عليها، وتنطلق جنود إبليس إليه فيبشرونه بأنهم قد أوردوا عبدًا من ولد آدم النار، قال: فإذا وضع في قبره ضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه حتى تدخل اليمنى في اليسرى واليسرى في اليمنى، قال: ويبعث الله إليه أفاعى دهما كأعناق الإبل، يأخذون بأرنبته وإبهامى قدميه فيقرضنه حتى يلتقين في وسطه، قال: ويبعث الله ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف، وأصواتهما كالرعد القاصف وأنيابهما كالصياصي وأنفاسهما كاللهب يطآن في أشعارهما بين منكبى كل واحد منهما مسيرة كذا وكذا، قد نزعتهما الرأفة والرحمة، يقال لهما منكر ونكير، في يد كل واحد منهما مطرقة لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يقلوها، قال فيقولان له اجلس قال: فيستوى جالسًا وتقع أكفانه في حقويه، قال فيقولان له: من ربك، وما دينك، ومن

نيك؟ فيقول: لا أدري، فيقولان له: لا دريت ولا تليت، قال: فيضربانه ضربة يتطاير شررها في قبره ثم يعودان، قال: فيقولان: انظر فوقك فينظر، فإذا باب مفتوح من الجنة، فيقولان: عدو الله هذا منزلك لو أطعت الله. قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا تترد أبداً». - قال - ويقولان له: انظر تحتك فينظر تحته فإذا باب مفتوح إلى النار - فيقولان له: عدو الله هذا منزلك إذ عصيت الله، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا تترد أبداً» قال: وقالت عائشة: ويفتح له سبعة وسبعون باباً إلى النار يأتيه حرها وسمومها حتى يبعثه الله إليها. هذا حديث غريب جداً، وسياق عجيب، ويزيد الرقاشي روايه عن أنس له غرائب ومنكرات، وهو ضعيف الرواية عند الأئمة، والله أعلم، ولهذا قال أبو داود (١): «حدثنا إبراهيم بن موسى الرازي، حدثنا هشام هو ابن يوسف عن عبد الله بن بحير عن هاني مولى عثمان، عن عثمان رضى الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه فقال «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل» تفرد به أبو داود، وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٩٣]، حديثاً مطولاً جداً من طريق غريب عن الضحاک عن ابن عباس مرفوعاً، وفيه غرائب أيضاً.

ثلاثة

أربع

الحزب

٢٦

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٣٥﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَنَسُّوا الْفَرَارَ ﴿٣٦﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدْدَااَ لِيُضِلُّوهُ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّقُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٧﴾﴾

قال البخاري: قوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا﴾ ألم تعلم، كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ [إبراهيم: ٢٤] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا﴾ [البقرة: ٢٤٣] البوار الهلاك، بار بيور بورا، ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨، الفتح: ١٢] هالكين. حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان عن عمرو بن عطاء. سمع ابن عباس ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا﴾ قال: وهم كفار أهل مكة، وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية، هو جبلة بن الأيهم والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم، والمشهور الصحيح عن ابن عباس هو القول الأول: وإن كان المعنى يعم جميع الكفار، فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين ونعمة للناس، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردها وكفرها دخل النار، وقد روى عن علي نحو قول ابن عباس الأول.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا شعبة عن القاسم بن أبي بزة، عن أبي الطفيل أن ابن الكواء سأل علياً عن ﴿الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ قال: هم كفار قريش يوم بدر، حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا بسام هو الصيرفي عن أبي الطفيل قال: جاء رجل إلى علي فقال: يا أمير المؤمنين من ﴿الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾؟ قال: منافقو قريش وقال ابن أبي حاتم (٢): «حدثنا أبي، حدثنا ابن نفيل قال:

(١) صحيح: أبو داود (٣٢٢١)، وانظر صحيح أبي داود.

(٢) إسناده منقطع: بين علي وابن أبي حسين، وهو عبد الله بن عبد الرحمن ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/

قرأت على معقل عن ابن أبي حسين قال: قام على بن أبي طالب رضى الله عنه فقال: ألا أحد يسألنى عن القرآن، فوالله لو أعلم اليوم أحدا أعلم به منى وإن كان من وراء البحار لأتيته، فقام عبد الله بن الكواء فقال: من ﴿الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ﴾؟ قال: مشركو قريش أنتهم نعمة الله الإيمان فبدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار.

وقال السدى فى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ الآية، ذكر مسلم المستوفى، عن على أنه قال: هم الأفجران من قريش: بنو أمية وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة، فأحلوا قومهم دار البوار يوم بدر، وأما بنو أمية فأحلوا قومهم دار البوار يوم أحد، وكان أبو جهل يوم بدر، وأبو سفيان يوم أحد، وأما دار البوار فهى جهنم.

وقال ابن أبى حاتم^(١) رحمه الله: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا الحارث أبو منصور، عن إسرائيل عن أبى إسحاق، عن عمرو بن مر قال: سمعت عليا قرأ هذه الآية ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ﴾ قال: هم الأفجران من قريش: بنو أمية، وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة فأهلكوا يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين، ورواه أبو إسحاق عن عمرو ذى مر عن على، نحوه، وروى من غير وجه عنه. وقال سفيان الثورى عن على بن زيد عن يوسف بن سعد، عن عمر بن الخطاب فى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ قال: هم الأفجران من قريش: بنو المغيرة، وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكفيتهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين، وكذا رواه حمزة الزيات عن عمرو بن مرة قال: قال ابن عباس لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين هذه الآية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ﴾؟ قال: هم الأفجران من قريش: أخوالى وأعمامك، فأما أخوالى فاستأصلهم الله يوم بدر، وأما أعمامك فأملى الله لهم إلى حين، وقال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وابن زيد هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر، وكذا رواه مالك فى تفسيره عن نافع عن ابن عمر.

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أى جعلوا له شركاء عبدهم معه، ودعوا الناس إلى ذلك، ثم قال تعالى متهددا لهم ومتوعدهم على لسان نبيه ﷺ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أى مهما قدرتم عليه فى الدنيا فافعلوا، فمهما يكن من شىء ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أى مرجعكم وموتلكم إلينا كما قال تعالى: ﴿تَمَتَّعْتُمْ فَلَيْلَاتٌ تَنْظُرُهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [القصص: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٧٠].

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بِنِعِّ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾

يقول تعالى أمرا لعباده بطاعته والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه بأن يقيموا الصلاة، وهى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات والنفقة على القربات والإحسان إلى الأجانب، والمراد بإقامتها هو المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها، وأمر

(١) إسناده فيه جهالة: وأخرجه الطبري فى التفسير (١٣/ ٢٢١).

تعالى بالإنفاق مما رزق في السر أي في الخفية والعلاية وهي الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَهُ﴾ وهو يوم القيامة وهو يوم ﴿لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾ أي لا يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه، كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: ١٥] وقوله: ﴿وَلَا خِلَالَ﴾ .

قال ابن جرير: يقول ليس هناك مخاللة خليل فيصيح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالته، بل هناك العدل والقسط، والخلال مصدر من قول القائل: خاللت فلاناً فأنا أخاله مخاللة وخلالاً، ومنه قول امرئ القيس:

صرفت الهوى عنهن من خشية الردى ولست بمفلي للخلال ولا قالي

وقال قتادة: إن الله قد علم أن في الدنيا بيوعاً وخلالاً يتخاللون بها في الدنيا، فينظر الرجل من يخالل وعلام يصاحب، فإن كان لله فليداوم، وإن كان لغير الله فإنها ستقطع، قلت: والمراد من هذا أنه يخبر تعالى أنه لا ينفع أحداً ببيع ولا فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً لو وجده، ولا ينفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذا لقي الله كافراً، قال الله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ فِيهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٧٣] وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا وَمَا نَزَفْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ وَلَا شَفَعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ﴿٥٣﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٥٤﴾ وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَطَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٥٥﴾﴾

يعدد تعالى نعمه على خلقه بأن خلق لهم السموات سقفاً محفوظاً والأرض فراشاً ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَقِيحٍ﴾ [طه: ٥٣] ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع. وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر تجري عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر بحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى ههنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر رزقاً للعباد من شرب وسقى، وغير ذلك من أنواع المنافع ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ﴾ أي سيران لا يقران ليلاً ولا نهاراً ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] ﴿يَتَّبِعُوا آيَاتِ اللَّهِ أَنْتَهُمْ يُحِبُّونَ حَيْثُمَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْحُورَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأمراء: ٥٤] فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار يتعارضان، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصّر ﴿يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْفَعْلُ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر: ٥]، وقوله ﴿وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ يقول: هيا لكم ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم وقالكم. وقال بعض السلف: من كل ما سألتموه وما لم تسألوه، وقرأ بعضهم «وآتاكم من كل ما سألتموه وما تسألوه» وقوله ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا

يَمَنَّ اللَّهُ لَا تُحْصَوهُا ﴿١﴾ يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلا عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب رحمه الله: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا توابين. وأمساوا توابين، وفي صحيح البخاري (١) أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لك الحمد غير مكفى ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا».

وقال الحافظ أبو بكر البزار (٢) فى مسنده: حدثنا إسماعيل بن أبى الحارث، حدثنا داود بن المحبر حدثنا صالح المري عن جعفر بن زيد العبدى، عن أنس عن النبى ﷺ أنه قال: «يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين: ديوان فيه العمل الصالح، وديوان فيه ذنوبه، وديوان فيه النعم من الله تعالى عليه، فيقول الله تعالى لأصغر نعمه - أحسبه قال فى ديوان النعم - خذى ثمنك من عمله الصالح فتستوعب عمله الصالح كله، ثم تنحى وتقول: وعزتك ما استوفيت وتبقى الذنوب والنعم والعمل الصالح فتستوعب عمله الصالح كله، فإذا أراد الله أن يرحمه قال: يا عبدى قد ضاعفت لك حسناتك وتجاوزت عن سيئاتك - أحسبه قال: ووهبت لك نعمى « غريب وسنده ضعيف. وقد روى فى الأثر أن داود عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك وشكرى لك نعمة منك عليّ؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتنى يا داود، أى حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر النعم، وقال الإمام الشافعى رحمه الله: الحمد لله الذى لا تؤدى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب على مؤدى ماضى نعمه بأدائها نعمة حادثة توجب عليه شكره بها، وقال القائل فى ذلك:

لو كل جارحة منى لها لغة تثنى عليك بما أوليت من حسن
لكان ما زاد شكرى إذ شكرت به إليك أبلغ فى الإحسان والمنن

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٦٦﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَسَلْنَاكَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُمْ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾

يذكر تعالى فى هذا المقام محتجًا على مشركى العرب بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذى كانت بسببه أهلة عامرة تبرأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ وقد استجاب الله له فقال تعالى: ﴿أَوْلَيْتُمْ بَرًّا أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُحْتَفَلُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِمَّا قَامُوا بِإِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧] وقال فى هذه القصة ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ فعرفه لأنه دعا به بعد بنائها، ولهذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْتِعْمَالَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩] ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة فإنه دعا أيضًا فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] كما ذكرناه هنالك فى سورة البقرة مستقصى مطولاً.

(١) البخاري برقم (٥٤٥٨).

(٢) ضعيف جداً: ذكره الهيثمي فى المجمع (١٠/٣٦٠)، وقال: رواه البزار وفيه صالح المري وهو ضعيف قلت: والراوي عنه داود بن المحبر: متروك.

وقوله: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ينبغى لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولزنته، ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلانق من الناس، وأنه برئ ممن عبدها ورد أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم، كقول عيسى عليه السلام ﴿إِنْ تُؤْمِنُوا بِلَهُمْ عَبَادَةٌ وَإِنْ تَكْفُرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْمَرْبِيُّ لِكَلِمَةٍ﴾ [المائدة: ١١٨] وليس في هذا أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى لا تجوز وقوع ذلك.

وقال عبد الله بن وهب: حدثنا عمرو بن الحارث أن بكر بن سوادة حدثه عن عبد الرحمن بن جبير، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ إِنِّي أُنذِرُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَسَمِعْتَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَافِرٌ رَّحِيمٌ﴾، وقول عيسى عليه السلام ﴿إِنْ تُؤْمِنُوا بِلَهُمْ عَبَادَةٌ وَإِنْ تَكْفُرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْمَرْبِيُّ لِكَلِمَةٍ﴾ [المائدة: ١١٨]، فرجع يديه فقال: «اللهم أمتي، اللهم أمتي، اللهم أمتي»^(١) ويكى فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد، وربك أعلم، وأسأله ما يبكيه؟ فأناه جبريل عليه السلام فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك.

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُيُوتًا بِغَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه تأكيداً ورغبة إلى الله عز وجل، ولهذا قال: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾. وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

قال ابن جرير: هو متعلق بقوله ﴿الْمُحَرَّمِ﴾ أى إنما جعلته محرماً ليمكن أهله من إقامة الصلاة عنده ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير: لو قال أفئدة الناس لأزدهم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ فاخص به المسلمون وقوله: ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أى ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك، وكما أنه واد غير ذى زرع فاجعل له ثماراً يأكلونها، وقد استجاب الله ذلك كما قال: ﴿أَوَلَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا مَّأُونًا يَجُوعُ إِلَيْهِ تَمَرٌ كُلِّ شَيْءٍ وَرِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧] وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته ويركته أنه ليس فى البلد الحرام مكة شجرة مثمرة وهى تجبى إليها ثمرات ما حولها استجابة لخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا تُحْفَى وَمَا تُعَلِّمُ وَمَا يُخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥٧﴾﴾
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٥٨﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٥٩﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٦٠﴾﴾

قال ابن جرير: يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم خليله أنه قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا تُحْفَى وَمَا تُعَلِّمُ﴾ أى

أنت تعلم قصدى فى دعائى، وما أردت بدعائى لأهل هذا البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها، ولا يخفى عليك منها شيء فى الأرض ولا فى السماء، ثم حمد ربه عز وجل على ما رزقه من الولد بعد الكبر، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أى إنه يستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لى فيما سألته من الولد، ثم قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ أى محافظًا عليها مقيما لحدودها ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أى واجعلهم كذلك مقيمين الصلاة ﴿رَبِّكَ وَقَبَّلْ دُعَاءِي﴾ أى فيما سألتك فيه كله ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيْ﴾ قرأ بعضهم: ﴿وَالِوَالِدَيْ﴾ على الأفراد وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله عز وجل ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ أى كلهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أى يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿١٠﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِبِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدْتَهُمْ هَوَاءً ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى: ولا تحسبن الله يا محمد غافلا عما يعمل الظالمون، أى لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصى ذلك عليهم ويعدده عداً ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أى من شدة الأهوال يوم القيامة، ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم ومجيئهم إلى قيام المحشر، فقال: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أى مسرعين، كما قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ الآية [القم: ٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨] - إلى قوله - ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْعَذَابِ سِرًّا كَأَنَّهُمْ كَانَتْهُمْ إِلَى نَصَبِ بُوَيْسُونَ﴾ الآية [المعارج: ٤٣]. وقوله ﴿مُقْنِبِي رُءُوسِهِمْ﴾.

قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: رافعى رؤوسهم ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أى أبصارهم طائفة شاحصة يديمون النظر، لا يطفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة لما يحل بهم، عياداً بالله العظيم من ذلك، ولهذا قال: ﴿وَأَفْتَدْتَهُمْ هَوَاءً﴾ أى وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجع والخوف، ولهذا قال قتادة وجماعة: إن أمكنة أفئدتهم خالية لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف. وقال بعضهم: هواء خراب لا تعى شيئاً لشدة ما أخبر الله تعالى به عنهم، قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم: ٤٤]

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَيْكَ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِّبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أُولَئِكَ تَكُونُوا آفْسَاسَهُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿١٥﴾ وَسَكَتُمْ فِي مَسْجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿١٦﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَنْزِلَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب: ﴿رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَيْكَ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِّبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا

تَرَكْتُهَا كَلِمَةً مَوْ قَائِلَهَا وَمِنْ دَرَاهِيمِ بَرَزْتُ إِلَى بَوْرِ يَمِينُونَ ﴿٩٩-١٠٠﴾ ، وقال تعالى ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ ءَأْمُولُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [المنافقون: ٩-١٠] ، وقال تعالى مخبراً عنهم في حال محشرهم ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُتَجَرِّثُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [السجدة: ١٢] ، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ تُدْعَوْنَ إِلَىٰ الْعَارِ فَتَأَوَّبُوا مَبْعُوثًا لَقَدْ تَأْوَبْنَا رَبَّنَا وَلَا تَنكُزُ بَٰرِحَتَنَا رَبَّنَا وَلَوْ رَدُّوْنَا لَعَادُوا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٧-٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨] ، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَءَاءَكُمُ الشَّيْءُ فَدُّوقُوا فَقَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٢٦﴾﴾ [فاطر: ٢٧] ، قال تعالى رداً عليهم في قولهم هذا ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٢٥﴾﴾ أي أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحال أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه وأنه لا معاد ولا جزاء فذوقوا هذا بذاك، قال مجاهد وغيره ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أي ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، كما أخبر عنهم تعالى ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعُثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلْ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا ﴿٢٤﴾﴾ [النحل: ٢٤] ، ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْجِدٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَبَيَّتَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْآمَثَالَ ﴿٢٣﴾﴾ أي قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر، ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر ﴿حِكْمَةٌ بَيِّنَةٌ فَمَا تُغْنِ الْذُرُّ ﴿٢٢﴾﴾ [القمص: ٥] وقد روى شعبة عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن أن علياً رضى الله عنه قال في هذه الآية ﴿وَإِن كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَرْزُلَ مِنهُ الْجِبَالَ ﴿٢١﴾﴾ قال: أخذ ذاك الذي حاج إبراهيم في ربه نسرين صغيرين، فرباهما حتى استغلفا استعلجا وشبا، قال: فأوثق رجل كل واحد منهما بوتد إلى تابوت وجوعهما، وقعد هو ورجل آخر في التابوت، قال: ورفع في التابوت عصاً على رأسه اللحم قال: فطارا، وجعل يقول لصاحبه: انظر ما ترى؟ قال: أرى كذا وكذا حتى قال أرى الدنيا كلها كأنها ذباب. فقال: صوب العصا، فصوبها فهبطا، قال: فهو قول الله عز وجل: ﴿وَإِن كَادَ مَكْرُهُمْ لِيَرْزُلَ مِنهُ الْجِبَالَ﴾.

قال أبو إسحاق: وكذلك هي في قراءة عبد الله وإن كاد مكرهم قلت: وكذا روى عن أبي بن كعب وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما أنهما قرأا ﴿وَإِن كَادَ﴾ كما قرأ على، وكذا رواه سفيان الثوري وإسرائيل عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن أذنان عن علي فذكر نحوه، وكذا روى عن عكرمة أن سياق هذه القصة لنمرود ملك كنعان أنه رام أسباب السماء بهذه الحيلة والمكر، كما رام ذلك بعده فرعون ملك القبط في بناء الصرح فعجزوا وضعفاً، وهما أقل وأحق وأصغر وأدحر، وذكر مجاهد هذه القصة عن بختنصر وأنه لما انقطع بصره عن الأرض وأهلها، نودى أيها الطاغية أين تريد؟ ففرق ثم سمع الصوت فوقه، فصوب الرماح فصويت النسور، ففرغت الجبال من هدهتها، وكادت الجبال أن تزول من حس ذلك، فذلك قوله: ﴿وَإِن كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَرْزُلَ مِنهُ الْجِبَالَ﴾.

ونقل ابن جريج عن مجاهد أنه قرأها ﴿يَرْزُلُ مِنهُ الْجِبَالَ﴾ بفتح اللام الأولى وضم الثانية، وروى العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِن كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَرْزُلَ مِنهُ الْجِبَالَ﴾ يقول: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال، وكذا قال الحسن البصري، ووجهه ابن جرير بأن هذا الذي فعلوه بأنفسهم من كفرهم بالله وشركهم به، ما ضر ذلك شيئاً من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبادل ذلك عليهم، قلت:

ويشبه هذا إذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذْ فِي الْأَرْضِ مَرَجًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، والقول الثاني في تفسيرها ما رواه على بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَأِنْ كَانَتْ مَكْرُمُهُمْ لَيَنْزِلَنَّ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ يقول: شركهم كقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَجشُّقُ الْأَرْضُ وَيَحْتَرُّ الْجِبَالُ هَذَا أَنْ دَعَا لِلزَّحْمَنِ وَلَذًا﴾ [مریم: ٩٠-٩١]، وهكذا قال الضحاك وقاتدة.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفًا وَعْدِيهِ. رُسُلُهُ: إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿١٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى مقرراً الوعد ومؤكدًا: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفًا وَعْدِيهِ. رُسُلُهُ﴾ أى من نصرتهم فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أرادته ولا يغالب، وذو انتقام ممن كفر به وجحدته ﴿وَيَلِيَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥]، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ أى وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، وهى هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة، كما جاء فى الصحيحين^(١) من حديث أبى حازم عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى ليس فيها معلم لأحد».

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا محمد بن أبى عدى عن داود عن الشعبي عن مسروق، عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأل النبي ﷺ عن هذه الآية ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ قالت: قلت أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط»، رواه مسلم^(٣) منفردًا به دون البخارى، والترمذى وابن ماجه^(٤) من حديث داود بن أبى هند به، وقال الترمذى: حسن صحيح، ورواه أحمد^(٥) أيضًا عن عفان عن وهيب عن داود، عن الشعبي عنها، ولم يذكر مسروقًا. وقال قتادة عن حسان بن بلال المزنى عن عائشة رضى الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ قال: قالت: يا رسول الله، فأين الناس يومئذ؟ قال: «لقد سألتنى عن شيء ما سألتنى عنه أحد من أمتى، ذلك أن الناس على جسر جهنم»^(٦). وروى الإمام أحمد^(٧) من حديث حبيب بن أبى عمرة عن مجاهد، عن ابن عباس حدثنى عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] فأين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «هم على متن جهنم».

وقال ابن جرير^(٨): حدثنا الحسن، حدثنا على بن الجعد، أخبرنا القاسم، قال: سمعت الحسن قال: قالت عائشة: يا رسول الله ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ فأين الناس يومئذ؟ قال: «إن هذا الشيء ما سألتنى عنه أحد - قال - على الصراط يا عائشة»، ورواه أحمد^(٩) عن عفان عن القاسم بن

(١) البخاري برقم (٦٥٢١)، ومسلم برقم (٢٧٩٠).

(٢) المسند (٢٣٥٤٩).

(٣) مسلم برقم (٢٧٩١)، من حديث عائشة.

(٤) صحيح: الترمذى برقم (٣١٢١)، ابن ماجه (٤٢٧٩)، من حديث عائشة، وانظر صحيح الترمذى.

(٥) المسند (٢٤٥٠٢)، من حديث عائشة. (٦) أخرجه ابن جرير فى التفسير (٢٥٣/١٣).

(٧) المسند (٢٤٣٣٥).

(٨) إسناده منقطع: فى التفسير (٢٥٣/١٣)، والحسن لم يسمع من عائشة.

(٩) المسند (٢٤١٧٦).

الفضل، عن الحسن به.

وقال الإمام مسلم^(١) بن الحجاج في صحيحه: حدثني الحسن بن علي الحلواني، حدثني أبو توبة الربيع بن نافع، حدثنا معاوية بن سلام عن زيد يعني أخاه أنه سمع أبا سلام، حدثني أبو أسماء الرحبي أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ حدثه قال: كنت قائما عند رسول الله ﷺ، فجاء حبر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله؟ فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله، فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي» فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال رسول الله ﷺ: «أينفعك شيء إن حدثتك؟» قال: «أسمع بأذني، فنكت رسول الله ﷺ يعود معه فقال: «سل» فقال اليهودي: أين يكون الناس حين تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر» قال: فمن أول الناس إجازة؟ فقال: «فقرء المهاجرين»، فقال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد الحوت» قال: فما غذائهم في أثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها» قال: فما شرابهم عليه؟ قال «من عين فيها تسمى سلسبيلاً». قال: صدقت، قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان. قال «أينفعك إن حدثتك؟» قال: «أسمع بأذني». قال: جئت أسألك عن الولد، قال: «ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة، أذكرا بإذن الله تعالى، وإذا علا مني المرأة مني الرجل، أنا بإذن الله» قال اليهودي: لقد صدقت وإنك لنبى ثم انصرف فذهب، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألتني هذا عن الذي سألتني عنه، ومالي علم بشيء منه حتى أتاني الله به».

قال أبو جعفر بن جرير الطبري^(٢): حدثنا ابن عوف، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا سعيد بن ثوبان الكلاعي، عن أبي أيوب الأنصاري أن النبي ﷺ حبر من اليهود فقال: رأيت إذ يقول الله تعالى في كتابه: «يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ» فأين الخلق عند ذلك؟ فقال: «أضياف الله فلن يعجزهم ما لديه» ورواه ابن أبي حاتم من حديث أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم به. وقال شعبة: أخبرنا أبو إسحاق، سمعت عمرو بن ميمون، وربما قال: قال عبد الله، وربما لم يقل، فقلت له عن عبد الله فقال: سمعت عمرو بن ميمون يقول: «يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ» قال: أرض كالفضة البيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم يعمل عليها خطيئة، ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي حفاة عراة كما خلقوا، قال: أراه قال قياما حتى يلجمهم العرق.

وروى من وجه آخر عن شعبة عن إسرائيل عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون عن ابن مسعود بنحوه، وكذا رواه عاصم عن زر عن ابن مسعود به. وقال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون: لم يخبر به، أورد ذلك كله ابن جرير.

(١) مسلم برقم (٣١٥).

(٢) إسناده ضعيف: تفسير الطبري (١٣/٢٥٤)، وابن أبي مريم وهو أبو بكر بن عبد الله: ضعيف وشيخه مجهول.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار^(١) : حدثنا محمد بن عبد الله بن عبيد بن عقيل ، حدثنا سهل بن حماد أبو عتاب ، حدثنا جرير بن أيوب عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله ، عن النبي ﷺ في قول الله عز وجل : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ قال : أرض بيضاء لم يسفك عليها دم ، أو ولم يعمل عليها خطيئة» ثم قال : لا نعلم رفعه إلا جرير بن أيوب ، وليس بالقوى ، ثم قال ابن جرير^(٢) : حدثنا أبو كريب ، ثنا معاوية بن هشام عن سنان عن جابر الجعفي ، عن أبي جبيرة عن زيد قال : أرسل رسول الله ﷺ إلى اليهود فقال : «هل تدرون لم أرسلت إليهم؟» قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : «فإنني أرسلت إليهم أسألهم عن قول الله ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ إنها تكون يومئذ بيضاء مثل الفضة» فلما جاءوا أسألهم ، فقالوا : تكون بيضاء مثل النقي ، وهكذا روى عن علي وابن عباس وأنس بن مالك ومجاهد بن جبير أنها تبدل يوم القيامة بأرض من فضة . وعن علي رضى الله عنه أنه قال : تصير الأرض فضة والسموات ذهباً . وقال الربيع عن أبي العالية بن كعب ، قال : تصير السموات جناناً . وقال أبو معشر عن محمد بن كعب القرظي عن محمد بن قيس في قوله : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ قال : خبزة يأكل منها المؤمنون من تحت أقدامهم ، وكذا روى وكيع عن عمر بن بشير الهمداني عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ قال : تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه .

وقال الأعمش عن خيشمة قال : قال عبد الله هو ابن مسعود : الأرض كلها يوم القيامة نار ، والجنة من ورائها ترى كواعبها ، وأكوابها ، ويلجم الناس العرق أو يبلغ منهم العرق ، ولم يبلغوا الحساب . وقال الأعمش أيضاً عن المنهال بن عمرو عن قيس بن السكن قال : قال عبد الله : الأرض كلها نار يوم القيامة ، والجنة من ورائها ترى أكوابها وكواعبها ، والذي نفس عبد الله بيده ، إن الرجل ليفيض عرقاً حتى ترسخ في الأرض قدمه ، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه وما مسه الحساب ، فقالوا : مم ذاك يا أبا عبد الرحمن؟ قال : مما يرى الناس ويلقون . وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن كعب في قوله : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ قال : تصير السموات جناناً ، ويصير مكان البحر ناراً ، وتبدل الأرض غيرها . وفي الحديث الذي رواه أبو داود^(٣) «لا يركب البحر إلا غاز أو حاج أو معتمر ، فإن تحت البحر ناراً - أو تحت النار بحرًا» وفي حديث الصور المشهور المروى عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنه قال : «يبدل الله الأرض غير الأرض والسموات فيسسطها ويمدها مد الأديم العكاظي ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً ، ثم يزر الله الخلق زجرة فإذا هم في هذه المبدلة»^(٤) . وقوله : ﴿وَيَرْزُقُ اللَّهُ﴾ أى خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿الْوَالِدِ الْفَهَّارِ﴾ أى الذى قهر كل شيء وغلبه ودانت له الرقاب وخضعت له الأبواب .

(١) إسناده ضعيف جداً : في مسنده (٢٤٦/٥) ، برقم (١٨٥٩) ، وقال الهيثمي في المجمع (٤٨/٧) : فيه جرير بن أيوب البجلي وهو متروك .

(٢) إسناده ضعيف لضعف جابر الجعفي : الطبري في التفسير (٢٥٠/١٣) .

(٣) ضعيف : أبو داود برقم (٢٤٨٩) ، من حديث عبد الله بن عمرو ، وانظر ضعيف أبي داود .

(٤) أخرجه الطبري في التفسير (٢٥٢/١٣) .

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٦﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطْرَانٍ وَتَعْنَىٰ وَجُوهُهُمْ النَّارُ ﴿٤٧﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وتبرز الخلائق لديانها، ترى يا محمد يومئذ المجرمين وهم الذين أجزموا بفسادهم وكفرهم ﴿مُقْرَّبِينَ﴾ أى بعضهم إلى بعض قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: ﴿تَحْتَرُوا الْيَتِيمَ ظُلْمًا وَأُزْنِيهِمْ﴾ [المصافات: ٢٢] وقال: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧] وقال: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقْرَّبِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣]

وقال: ﴿وَالشَّيْطَانِ كُلِّ بَنَاءٍ وَعَوَاسٍ وَآخِرِينَ مُّقْرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٧-٣٨] والأصفاد هي القيود، قاله ابن عباس وسعيد بن جبيرة والأعمش وعبد الرحمن بن زيد، وهو مشهور في اللغة، قال عمرو بن كلثوم:

فأبوا بالثياب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

وقوله: ﴿سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطْرَانٍ﴾ أى ثيابهم التى يلبسونها عليهم من قطران، وهو الذى تهنأ به الإبل أى تطفى، قال قتادة: وهو الصق شىء بالنار. ويقال فيه: قطران بفتح القاف وكسر الطاء وتسكينها، وبكسر القاف وتسكين الطاء، ومنه قول أبي النجم:

كان قطراناً إذا تلاها ترمى به الريح إلى مجراها

وكان ابن عباس يقول: القطران هنا النحاس المذاب، وربما قرأها ﴿سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطْرَانٍ﴾ أى من نحاس حار قد انتهى حره، وكذا روى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبيرة والحسن وقاتدة. وقوله: ﴿وَتَعْنَىٰ وَجُوهُهُمْ النَّارُ﴾ كقوله: ﴿تَلْعُ وَجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

وقال الإمام أحمد^(١) رحمه الله: حدثنا يحيى بن إسحاق، أنبأنا أبان بن يزيد عن يحيى بن أبي كثير عن زيد عن أبي سلام، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركوهن: الفخر بالأحساب، والظمن فى الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت، والنانحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب» انفرد بإخراجه مسلم^(٢).

وفى حديث القاسم عن أبي أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «النانحة إذا لم تتب توقوف فى طريق بين الجنة والنار سرابيلها من قطران وتعشى وجهها النار»^(٣).

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أى يوم القيامة ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عملُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِالتَّنِي﴾ الآية [النجم: ٣١] ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. يحتمل أن يكون كقوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الانبيا: ١] ويحتمل أنه فى حال محاسبته لعبده سريع النجاز لأنه يعلم كل شىء، ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله

(١) المسند (٢٢٣٩٦)، ووقع بين يحيى بن إسحاق وأبان بن يزيد (حدثنا موسى)، فليعلم.

(٢) مسلم برقم (٩٣٤).

(٣) أخرجه الطبراني فى الكبير (٢٠١/٨)، برقم (٧٨١٨).

تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَثَكُمْ إِلَّا كَفَّيْسٍ وَجَدَّةٌ﴾ [القمان: ٢٨] وهذا معنى قول مجاهد ﴿سَرِيحُ الْحِسَابِ﴾ إحصاء ويحتمل ان يكون المعنيان مرادين، والله أعلم.

﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَجِدٌ، وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

يقول تعالى هذا القرآن بلاغ للناس كقوله: ﴿لِيَذَّكَّرَ بِهِ وَمَنْ يَلْمِ﴾ [الأنعام: ١٩] أى هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجان كما قال فى أول السورة: ﴿الرَّ كُتُبٌ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ لِنُفِخِ النَّاسِ مِنَ الظَّالِمِينَ إِلَى النَّوْرِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١]، ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ أى يتعظوا به ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَجِدٌ﴾ أى يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أى ذوو العقول.

آخر تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والحمد لله رب العالمين

